عمر فروخ ودراساته الأدبية والنقدية

رسالة ماجستير للباحثة: هيفاء رشيد الجهني

فقد رغبت في إلقاء الأضواء على نتاج الدكتور عمر فروخ الأدبي بصفته من دارسي الأدب في العصر الحديث الذين يتوقف المرء أمام مؤلفاته الكثيرة ودراساته الأدبية الواسعة والمتميزة. وكان أول ما يتحتم علي تناوله بالبحث والدراسة من مؤلفاته الأدبية والنقدية هو: «موسوعته تاريخ الأدب العربي» المكونة من ستة أجزاء مردفة بجزأين آخرين بعنوان «معالم الأدب العربي في العصر الحديث».

فهذا الكتاب من أوسع وأشمل الكتب التي أرخت للأدب العربي. حيث يبدأ فيه بالعصر الجاهلي ومناقشة بعض القضايا حول الأدب في هذا العصر مثل: أيهما أهم في العمل الأدبي (اللفظ أم المعنى)؟! فهذه قضية قديمة. وقد عرض لاختلاف النقاد حول هذه القضية. فالبعض يرى أن المعنى في العمل الأدبي أهم. إذ إنه هو الغرض الأول المراد تحقيقه من أي عمل أدبي. بينما يرى فريق آخر أن المعاني في متناول الجميع. وانما المعول عليه يعود إلى اللفظ أو الأسلوب. فالشاعر أو الأديب الموهوب هو الذي يستطيع أن يكتب حول المعنى الواحد بعدة أساليب. وهذا أمر صحيح على أن يضفي كل أسلوب على المعنى شيئا من الرونق والجمال والقوة والوضوح.

كما عرض لقضية أخرى: أيهما أقدم الشعر أم النثر؟! عرض للشعر في الجاهلية. فذكر أنه كان شعرا قويا يعتمد على سبك المعاني وجزالة الألفاظ وكان عموديا (يلتزم بوزن معين وقافية موحدة).

أما النثر فقد تعددت أنواعه فهناك الخطب، والحكم، والأمثال، وسجع الكهان، وقد كان النثر في جاهليته يعتمد على الصناعة اللفظية كثيرا. ويرى الدكتور عمر فروخ أن الأدب في عصر صدر الإسلام كان متأثرا جدا بالقرآن الكريم وبتعاليم الدين الإسلامي، إلى جانب تأثره بالأدب الجاهلي من حيث الألفاظ الجزلة والأساليب الرصينة.

لكن ما كاد يطل علينا عصر بني أمية حتى نرى أن المعاني الجاهلية التي اندثرت في الشعر بظهور الإسلام أخذت تعود مرة أخرى، فعاد الهجاء اللاذع والتفاخر بالأنساب.

أما النثر فقد اتسع في عصر بني أمية اتساعا كبيرا بسبب نشوء الأحزاب والمذاهب السياسية المختلفة وتطور الحياة الاجتماعية واتساع رقعة الدولة الإسلامية. فقد اتسعت كتابة الرسائل في هذا العصر فكانت الرسائل الأخوية ثم الرسائل الديوانية. وقد اشتمل النثر في هذا العصر على الصناعة اللفظية والاستشهاد بالحكم والأمثال والشعر، وذلك في الخطب.

أما في العصر العباسي فقد مال الشعراء إلى الرقة والعذوبة في الألفاظ نظرا لاختلاطهم بالفرس والسلاجقة، وتغير أساليب الحياة الاجتماعية في هذا العصر، كما أكثروا من الصناعة اللفظية والتأنق البديعي، وأخذ بعضهم يتحرر من القافية الموحدة. وقد تطورت بعض الفنون كفن الوصف مثلا، إذ نجدهم يأخذون في وصف القصور والبرك والنوافذ. إلى جانب نظمهم في الفنون القديمة.

أما النثر فقد كان أيضا يميل إلى سهولة الألفاظ ووضوحها والصناعة اللفظية، ونشأت التوقيعات واتسع ديوان الرسائل.

وبعد سقوط بغداد على يد هولاكو التتري سنة (٦٥٦هـ) بدأ الأدب يميل إلى الضعف والركاكة، وقد حاول الدكتور عمر فروخ أن يدفع عن هذه الفترة التي تلت سقوط بغداد تسميتها بعصر الانحطاط، وقد حاولت معه.. لكن تبقى الحقيقة الأكيدة التي نستنتجها من نتاج شعراء وأدباء هذا العصر، وهي وصفه بعصر الانحطاط في الأدب، وإن كان هناك شعراء قليلون نهجوا منهج القدماء في شعرهم من جزالة في الألفاظ ورصانة في الأساليب وقوة في المعاني، ولكن السمة الغالبة كانت هي الانحطاط والضعف والركاكة، وقد استمر الأدب كذلك إلى عهد النهضة في بداية العصر الحديث.

أما الأدب في الأندلس فقد خصه الدكتور عمر فروخ بثلاثة أجزاء من موسوعته: تاريخ الأدب العربي، فدرس هذا الأدب منذ القرن الهجري الأول أي من بداية وصول العرب إلى المغرب والأندلس إلى نهاية عصر بني الأحمر وسقوط غرناطة في يد الأسبان، وقد كان هذا الأدب شعرا ونثرا متأثرا بالطبيعة الخلابة في الأندلس وبالحياة الاجتماعية هناك، فاتسع فن الوصف اتساعا كبيرا.

هذا وقد عقدت مقارنة بين دراسة الدكتور عمر فروخ لتاريخ الأدب العربي وبعض الدراسات المناظرة، وقد اخترت منها:

تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان، وسلسلة تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف، وتاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات.

ولم يفت هذا البحث دراسة الشخصيات التي تعرض لها الدكتور عمر فروخ. فهناك شخصيات تناولها في موسوعته: تاريخ الأدب العربي، وهناك شخصيات أخرى أفردها بالدراسة واتضح لي من خلال هذه الوقفة أن دراسته للشخصيات في تاريخ الأدب العربي كانت سطحية لا تتعدى ذكر اسم صاحب الترجمة، وشيئا بسيطا عن حياته وخصائصه الفنية، ونموذجا أو نموذجين من نتاجه، وإن أردف كل شخصية بالمراجع القديمة والحديثة التي توفر للباحثين جهدهم ووقتهم مما يعد من حسنات الدكتور عمر فروخ في هذا المجال.

أما تناوله للشخصيات في دراسة مستقلة، فقد تناول من هؤلاء: عمر بن أبي ربيعة هذا الشاعر الغنائي الغزلي الأموي، الذي أكثر من الغزل.

كما خص الشاعر العباسي أبا تمام بدراسة مستقلة، فتناول شعره بالبحث والتحليل، وذكر أن شغف أبي تمام بالإغراب ما كان إلا لسعة اطلاعه، وفكره القوي، فيما يرى كثير من النقاد أن أبا تمام أسرف في الصناعة اللفظية والإغراب والتصنيع مما أرهق الذهن في الوقوف على معانيه والوقوف على مراده.

كذلك خص أبا فراس الحمداني بدراسة مستقلة، فأثبت في خصائصه المعنوية تغلب الجد على شعره لوقوعه في الأسر، فكان شعره ممتلئا حسرة وأسى ولوعة وشكوى. وفي خصائصه اللفظية ذكر تفشي الصناعة اللفظية من بديع ومجازات تشبيهية واستعارات، ولكن هذه المجازات والتشابيه والاستعارات لم تكن غامضة أو معقدة أو متكلفة إنما كانت واضحة جلية جميلة في مواضيعها.

إبراهيم طوقان

أبو فراس الحمداني

وأخيرا تناولت دراساته الشاعرين إبراهيم طوقان وأبا القاسم الشابي وكلاهما من شعراء العصر الحديث، وعاشا في فترة واحدة تقريبا وعانا وطأة المرض في جسميهما والاحتلال لبلديهما وقد كان الدكتور عمر فروخ يميل إلى إبراهيم طواقان كثيرا باعتبار الصداقة التي كانت تربطهما.

كما تناول البحث رأي الدكتور عمر فروخ في الشعر الحديث بالعرض والتحليل إذ إنه يرى أن دعاة التجديد في الشعر الحديث قد تأثروا بالآداب الأجنبية، وادعوا أن النظم الحر المتفلت من الوزن والقافية شعر جديد، ونسوا أو تناسوا أن هذا النوع من الأدب وجد لدى العرب منذ العصر الجاهلي واستشهد على ذلك بخطبة قس ابن ساعدة الإيادي (أيا الناس، اسمعوا وعوا..) وهذا النوع من الكلام لا يسمى شعرا، فالشعر لابد أن يلتزم بالوزن والقافية، وتأثر دعاة التجديد بالآداب الأجنبية ومحاولتهم تطبيق ذلك على الشعر العربي جعلهم يخرجون لنا قولا ركيكا ضعيفا لا يشتمل على قيم أو أساليب مؤثرة.

وقد آثرت أن أختم هذا الباب بموازنة بين دراسة الدكتور عمر فروخ للشابي ودراسة غيره له. فكانت الموازنة بين رأيه في شعر الشابي ورأى الدكتور يوسف عز الدين، وقد خلصت من ذلك إلى أن الشابي قد تبنى قضايا وطنه رغم مرضه ومعاناته النفسية والاجتماعية، وأنه لم يكن ناقما على الحياة العربية وعلى الشعب التونسي، وإنما كان ناقما على

جمود هذا الشعب واستكانته وجبنه أمام المستعمر.

كما وازنت بين رأيه في الشعر الحديث ورأي كبار دعاة التجديد، واستخرجت من أقوالهم فساد دعواهم وبطلانها، فكانت الموازنة بين رأيه ورأي نازك الملائكة، والدكتور محمد النويهي.

وأخيرا كان لزاما عليّ أن أتطرق لآراء النقاد المعاصرين في جهوده الأدبية النقدية، ومكانته في الحركة الأدبية المعاصرة، فعرضت لآراء نخبة من الأساتذة الأجلاء الذين أجمعوا على سمو الرسالة التي أداها -رحمه الله- إذ إنه ترك لنا ما يربو على ثمانين مؤلفا في التاريخ والفلسفة والدراسات الإسلامية والرد على المستشرقين، والتأليف المدرسي، واللغة والأدب، إلى جانب ديوانه «فجر وشفق»، وبذلك يحتل -رحمه الله- مكانة مرموقة في الساحة الأدبية نظرا لأهمية مؤلفاته بالنسبة للدارسين والباحثين وطلبة العلم. فهذه الجهود القيمة كان لها تأثيرها على الحركة الأدبية المعاصرة.

وقد لاح للبحث العديد من النتائج التي لخصتها هنا من خلال الفصول والمباحث التي مرت بنا:

- غزارة المادة العلمية في موسوعته «تاريخ الأدب العربي»، إذ إن هذه الموسوعة تحوي التأريخ للأدب العربي من جاهليته إلى القرن الحادي عشر الهجري، وذلك في ثمانية أجزاء.
- اهتمامه بدراسة التراث الأدبي فقد تناول عددا من الشعراء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة في دراسات مستقلة مثل: دراسته لبشار بن برد، وأبي نواس وأبي تمام، وإخوان الصفا، وابن سينا، وابن حزم..

الشابي

- شاعريته -رحمه الله- فبعد تناولي لمؤلفاته الأدبية والنقدية بالدراسة والبحث وجدت أنه شاعر جيد، وله ديوان بعنوان «فجر وشفق»، إلى جانب شعره الكثير الموجود في كتابه غبار السنين، وقد كان شاعرا قوي العاطفة، رقيق الشعور.
- رفضه الشديد للشعر الحر، وإصراره على فساد مذهبه القائم على تقليد الغرب والتأثر به فيما لا ينفع.
- دفاعه عن الإسلام والتراث الإسلامي، وتصديه للمستشرقين والرد على ادعاءاتهم وآرائهم الباطلة التي تحاول المساس بهذه العقيدة.
- دفاعه عن اللغة العربية، وذلك من خلال اهتمامه بالتأليف حولها مثل كتابه «عبقرية اللغة العربية»، أو كتابه القومية والفصحى، أو من خلال مشاركاته في مؤتمرات مجامع اللغة العربية أو الندوات والمحافل.
- تأليفه المدرسي: فقد ألف العديد من المناهج الدراسية التي كانت تدرس في بلده لبنان.

وأخيرا فإن هذه الدراسة التي مضت مع الدكتور عمر فروخ ودراساته الأدبية والنقدية لتؤكد على أن جوانبه الفكرية والأدبية ما تزال في حاجة إلى العديد من الأبحاث والدراسات، فالرجل متعدد الجوانب، واسع العلم، وقد أغنى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات القيمة التي ذكرتها فيما سبق.. وكل ذلك يغري بعكوف الباحثين والمنقبين ليرودوا هذه الميادين، وهي بلا شك تستحق العكوف عليها والعناية بها.

وهذه الدراسة المتواضعة التي أقدمها أنارت لي السبيل إلى العديد من الدراسات التي أدعو الباحثين والدارسين إليها في هذه الشخصية الإسلامية التي لم تأخذ حقها من العناية. ولذلك كانت لي هذه

المقترحات حول ما يمكن دراسته من نتاج الدكتور عمر فروخ:

أولا: شاعرية الدكتور عمر فروخ، هذه الشاعرية التي ربما لا تكون معروفة لدى كثير من الناس، فديوانه «فجر وشفق»، وكتابه غبار السنين يشتمل على شعر جيد يستحق الدراسة التي تقف على خصائص فنه الشعري، وتبين عن فكره وثقافته العربية الأصيلة.

ثانيا: دراساته المستقلة للأدباء والشعراء تستحق الدراسة والبحث والتحليل والنقد، فهناك العديد من الأدباء والشعراء الذين تناولهم بالبحث في دراسة مستقلة مثل دراسته لخمسة شعراء جاهليين: امرئ القيس، وعنترة، وطرفة بن العبد، والنابغة، وزهير. ودراسته لعمر بن أبي ربيعة، وبشار بن برد، وأبي نواس، وعبد الله بن المقفع، وأبي تمام، وأبي فراس، وإبراهيم طوقان، وأبي القاسم الشابي، وأحمد شوقي.. فهذه المؤلفات تستحق أن تفرد بدراسة علمية منهجية.

ثالثا: دراساته اللغوية وبحوثه في مجامع اللغة العربية يمكن أن تكون موضوعا لدراسة علمية منهجية، فهناك كتابه: عبقرية اللغة العربية، والقومية، والفصحى، إلى جانب البحوث التي قدمها لمجمع اللغة العربية، فهذا الجانب يمكن أن يعرض ويبحث وتناقش أراء الدكتور عمر فروخ فيه.

رابعا: موقفه من الاستشراق والرد على المستشرقين، فقد كان له موقفه المعروف والواضح من الاستشراق والمستشرقين، وله أسلوبه المتميز في الرد على المستشرقين من الإدلاء بالحجة والبرهان، والاعتماد على العقل والمنطق أولا وآخرا، فدراساته حول الاستشراق والمستشرقين جديرة بأن تعرض وتبحث وتناقش.

وهكذا نجد أمامنا أبوابا رحبة لعديد من الدراسات حول نتاج هذه الشخصية المتعددة العطاء، وكل ذلك يدفع الباحثين إلى توجيه أنظارهم إلى مؤلفاته لما تشتمل عليه من خصوبة وإثراء للأدب العربي، كما تضيف إليه العديد من الجوانب التي تكون مفخرة لكل عربي مسلم من اهتمام بدراسة الأدب العربي والرد على المستشرقين بأسلوب علمي يعتمد على الحجة والبرهان.

هذا وقد نوقشت هذه الرسالة في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

وصدرت في كتاب عن النادي الثقافي الأدبي في مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ■

مرثية الوطن السعيد

شعر: حاتم عبدالمحسن غيث - مصر

يا أيها البطل الشهيدْ
جريحاً بين أقفاص الحديدْ؟!
اليوم رغم الموت عيدْ
حتى متى ستدير
فلقد كتبت على جبين الدهر
وجهك يا أسيرَ
اسمك من جديدْ
العجز والحس البليدْ؟!
نهران من دمع العيونِ
هيا انتفضْ حررْ دموعك
توسدا خد القصيدْ
من كهوف اليأس
فاخضوضلت أطيافك الثكلى
من ذل العبيدْ
تردد من بعيدْ:
فالله يغلبُ أمرهْ
يا أيها الوطن السعيدْ
والله يفعل ما يريدْ
حتى متى ستظل عصفوراً

أمةٌ لن يجف منبعها

مصطفى عراقي حسن - مصر

يا حسرة ما أكاد أحملها ... آخرها مزعج وأولها
أسلمنا قومنا إلى نوب ... أيسرها في القلوب أقتلها

أبو فراس الحمداني:

وهذه معارضة لقصيدة أبي فراس الحمداني:

يا أمة في الرياح منزلها ... أضلاعه ما تكاد تحملها
النار من حولنا تحاصرها ... ونحن مثل الغثاء نخذلها
تبيت فوق الحراب أضلعها ... تمشي على المهلكات أرجلها
تسعى إلى المرتقى لتبلغه ... لكن أوهامنا تكبلها

يا أمَّ كم فتنةً رميتِ بها ... أصعبها قاتل ، وأسهلها
يا أمَّ كم محنةٍ دميتِ لها ... ونحن - لا المعتدون - أولها
أبناؤها حولها ضمائرهم ... شتى وأعداؤها ستشعلها
ناراً تبدت لنا مضرمة ... وبعضنا قد سعى يقبلها
فلا دماء الفداء نبذلها ... ولا سيوف الضياء نصقلها
لننقذ الطير من مخالبهم ... لتنتشي الأرض حين ننقلها
من الظلام الذي يحاك لها ... إلى الشروق الذي سيشملها
فلا وجوه الشرور تفزعها ... ولا صدوع الدجى تزلزلها

يا أمةً هل تعود سامقة ... مهما جبال الغيوم تثقلها
يخالها المرجفون ميتة ... ولم يزل في الحياة معقلها
يؤوي خطى الشاردين ينقذهم ... ويرشد التائهين مشعلها
يا أمةً لن يجف منبعها ... بل سوف يروي الحياة منهلها
في دعوة للنجاة نحملها ... وسورة بالتقى نرتلها